قاسم بن مهني

بقرة العيد



الدار التونسية للنشر

الثمن: 0,600 د.ت.

قاسم بن مهني

بقرة العيد

الطبعة الثانية

الدار التونسية للنشر

أوت 1986

بقــرة العيــد

في ليلةٍ من ليالي رمضانَ الكريمِ كُنَّا نشاهدُ تمثيليةً في التلفزةِ يدُورُ موضوعُها حولَ الأعيادِ وما عَلِقَ بها من عاداتٍ سيئةٍ ، وبينمـا نحنُ مأخُوذُون بمشهدٍ من مشاهِدِها الرّائعةِ إذْ قالت أُمّي :

ـ يجبُ أن نُفَكِّرَ من الآن .

فقال الأبُ : في أيِّ شيْءٍ ؟

ـ فِي العيـد .

ـ هل نُفكِّرُ في العيدِ قبلَ قُدومِه ؟ نحنُ الآنَ في السابعِ عشرَ مـن رمضانَ .

ـ إنّي أقصِدُ عيدَ الاضْحَى .

ـ وهل عيدُ الاضْحَى يجِيءُ قبل عيدِ الفِطْر ؟

- أردتُ أنْ أقولَ يجبُ أن تُفكِّرَ في شِراءِ بقرةٍ هذه السَّنةَ لنذْبَحَها في عيدِ الاضْحَى .

- بقرةٌ ... لماذا ؟

- لأنَّ الكبشَ لا يَكفِينَا لحمُه .

- لا يَكْفِينَا ؟ لماذا ؟

- إن أسرتَنا تَعُدُّ اربعةَ أفرادٍ ، ثُمَّ إنَّ الضيوفَ والمهنِّئِين كثيرُون .

- وهلْ لحمُ كبشٍ سمينٍ لا يُشبِعُ هؤلاءِ جميعًا ؟

- قلتُ لكَ لا يَكْفِي ، وكَفَى .

- ما تَعْنِينَ بهذا الكلام ؟

- أعْنِي أنه لا جِدالَ فِي المَوْضوعِ ، ويجبُ أن نَذْبَحَ بقرةً يومَ عيدِ الأضْحَى هذِه السَّنةَ .

- حرامٌ عليكِ يا امرأةُ ، إنَّ كبْشًا فيه الكفايةُ وزيادةٌ .

- إن خلاصةَ كلامي هي : إمَّا أن تشتريَ بقرةً هذِه الأيامَ . وإلاَّ ابقَ وحدَكَ فِي العيدِ لأنّي سأحمِلُ ولدي وسأذهبُ إلى أمّي .



- ما هَذا الكلامُ يا فاطمةُ ؟

- هذا آخرُ ما أقولُه لكَ .

- ألَمْ تنجَحْ هذِهِ التمثيليةُ وغيرُها في علاجِ مثلِ هذه المشاكلِ ؟

ولكنَّها لم تتركْ أبي يُنهي كلامَه إذْ غادرتْ غُرفةَ الجلوسِ ، وذهبتْ إلى فِراشِها ونامتْ .

ودَفعًا لكلِّ سوءِ تَفاهمٍ ، إذْ كان أبي يعلمُ أنَّ أُمِّي سَريعةُ الغضبِ ، عصبيّةُ المِزاجِ ، فقد ذهَبَ إلى السّوقِ ، واشترى بقرةً سوداءَ ، ففرِحَت وفرِحت أُخْتي سلْوى كلَّ الفرَحِ وجعَلْنا نقول :

- سَنُربّي هذه البقرةَ ، سيكونُ لنا عجولٌ .

- سنشربُ اللّبنَ .

فقالتْ لنا أُمّي :

- سنذْبَحُها في العيدِ .

فأجبتُ مُستغْرِبًا : هَل يُذبَحُ البقرُ العظِيمُ الجثّةِ مثلُ هذهِ البقرةِ في العيدِ يا أُمّاهُ ؟

- وَلِمَ لاَ ؟

- مَا ذبَحْنا بقرًا في العيدِ قبلَ هذهِ السّنةِ يا أمّي .

- سنذبَحُ البَقرَ في العيدِ بِدايةً من هذهِ السّنةِ .

- ولمــاذا ؟

- لأنَّ البقَـرَة أكثـرُ لحمًـا مـنَ الكَبْشِ .

- وَهَلِ الغَايَةُ من الأُضْحِيَةِ اللَّحمُ الكَثِيرُ ؟

- نعَـم .

- إنّ ماقرأْناه في دروسِ التَّربيةِ مُخَالِفُ لما تقولِينَهُ يا أُمِّي .

- ماذا قرَأْتُم في دروسِ التَّربيةِ ؟

لقدْ علَّمنَا المعلِّمُ أنَّ الأُضحِيَةَ سُنَّةٌ مؤكَّدة، تعوِّد الإنسانَ على التَّضْحيةِ والفِداءِ ، والبَذْلِ والعَطاءِ، في سبيلِ الوَطَنِ والدِّينِ والحقِّ .

- لمْ أفهمْ هذا الكلامَ .

- إليك توضيحًا يا أُمَّاه : ليستِ الغايةُ من العيدِ اللَّحمَ الكثيرَ كما تظنِّينَ ، بَلِ الغايةُ هيَ أن يتعوَّدَ الإنسانُ على الفِداءِ والتَّضحيةِ ، كما فُدِي سيِّدُنا إسماعيلُ بكَبْشٍ . وأَنّ هذه الأضحية تكونُ بأطيبِ لحمٍ . ألا وهُوَ لحمُ الكَبْشِ ، لذلك نَرَى الدِّينَ يُفضِّلُ أن تكونَ الأُضْحيةُ بكَبْشٍ ثُم بمَعْزٍ ، ثم بثَوْرٍ ، ثم بعِجْلٍ .

- وهل أنا أُريدُ الأفْضَليَّةَ وتعلّمَ الفـداءِ ؟

- ماذا تُرِيدِينَ إذنْ ؟

- أُريدُ اللَّحم الكَثِيرَ .

ـ فأنت إذَن لا تريدِينَ العملَ بِما جاءَ بِهِ الدّينُ بلْ تحَاوِلينَ إرضاءَ شَهوَاتِكِ ورغبَاتِكِ .

ـ أنتَ صَغيرٌ يا بنيّ، وسَتعرف أن الغايةَ منَ العيدِ : اللّحم والقديدُ .

ـ لا يا أُمّاهُ إنّ للعيدِ أهدافًا أسْمى منَ اللّحمِ والقديدِ .



ـ أنتَ نسخةٌ من أبيكَ لا تعرف إلاّ العِنادَ ٠

ـ وهلْ هَذا عنادٌ يا أُمّي ؟

ـ إنَّه بِعَيْنِه ، اسكُتْ يا وَلد ، أنا لَسْتُ فِي حاجَةٍ إلى نَصائِحك وتَوْجِيهاتك ٠

قالت هذا الكلامَ وانصرفتْ غاضبةً ٠



وبقيتُ مع أُخْتِي سَلْوَى قُرْبَ البَقرَةِ نقدِّم لها العَلفَ وننظرُ اليْها وهيَ تأكُلُ طعامَها وحاولتُ أن أمسَحَ رأسَها لكنّي خِفتُ ان تنطحني بقرْنيْها الطويلتين الحادّيْنِ ، وكنتُ أفعل هذا وأنا أفكرُ فِي طَريقةٍ تجعلُ والدتي تقتنعُ بانّ الغايةَ من العيدِ ليستْ اللحْمَ والقديدَ ، وما إن خَطَرتِ الفكْرةُ ببالِي ، حتّى التمعتْ عيْناي وكِدْتُ أنْ أَصِيحَ ٠ وَجدْتُها لكنّي لازمتُ الصّمتَ ، إذْ كانتْ سَلْوَى بالقرْبِ منّي ، فلَوِ اطّلعتْ على الأمْرِ لحالَتْ دونَ تنْفيذِ الخطّة ٠

وما خطَر ببالِي يا تُرى ؟



لقد رأيتُ أن أكتبَ نصيحةً ومـوْعِظةً وأضعها في عُلبةٍ صغيرةٍ وأرْمِي بها في عَلَفِ البقَرةِ صباحَ العِيـدِ ، فتبْتَلِعُهـا البقـرةُ ، وتمكُثُ فِـي كِرشِهَا • وعندَ غسْلِهَا نعثِرُ عليْها •

ولمَّا اقتنعتُ بجدْوَى هذا العمـلِ قمتُ إلى مكْتَبِي وحرَّرتُ ما يَلِي :

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم أيُّها الناسُ •

إلى الَّذينَ يُعيدون العَادَاتِ

إلى الَّذينَ لا يُريدون تغْييرَ ما بـأنْفُسِهم واللَّهُ يقولُ :

« إِنّ اللّهَ لايُغيّرُ مَا بِقَوْمٍ حتّى يُغيّرُوا ما بأنفُسِهم » . اِعلَموا أنّ اللّه لاَ يَنصُرُكم في الدّارَيْنِ إلاَّ إذا سلكتُمُ الطّريقَ المسْتقِيمَ .

وعمِلْتم بِما جاءَ بهِ القُرْآنُ الكَرِيمُ .

وابْتعدتُم عنْ كلِّ ما يَشِينُ .

إنَّ أعيادَكُم أصْبحَتْ رِياءً وتفاخُرًا .

إنَّ أعْراسَكُم أصْبحَتْ حاناتٍ وخمّاراتٍ .

إنَّ صلوَاتِكُمْ ومناسِكَكُم صارتْ عاداتٍ ميّتَةً .



اِعمَلوا بروحِ الدِّينِ تفوزوا .

حَقِّقوا الغَايَةَ من كلِّ عبادةٍ تنجَحوا .

اتركُوا العادَاتِ الضَّارَّةَ تفلِحوا .

وإلاَّ فالويلُ لكمْ فِي الدَّارَيْنِ ، والخسارةُ تنتظِرُكُم فِي الحَالَيْنِ .

وبعدَ أنِ انتهيْتُ مِنَ التَّحرِيرِ وضعْتُ الورقَةَ فِي عُلْبَةٍ صَغيرَةٍ واحتفظتُ بها في مكانٍ لا يعرفُه غيْرِي لِيَومِ الحاجَةِ .

وما كادَ المؤَذِّنُ ينتهِي من أذانِ الفَجْرِ صباحَ يوْمِ عيدِ الأَضْحَى ، حتَّى قمتُ من نومي ، وتوضَّأْتُ ثمّ صلَّيْتُ ، وبعْدَ ذلك ذهبتُ الى البقَرَةِ فوجَدْتُها تنظرُ بعيدًا كأنَّها أدركتْ مَصيرَهَا . فبعَثَ ذلكَ فِي نفسِي الشَّفقَةَ علَيْها وأخذتُ أُقدِّمُ لهَا العَلفَ فِي يَدَيَّ ، فامتنعَتْ عن أَكْلِهِ فقلت :

– لنْ تَفْلِحَ خطَّتِي إنْ أبتِ البَقرةُ الأَكْلَ .

وأعدْتُ الكرَّةَ لكنَّها امتنعتْ كلَّ الامْتِناعِ فاحتَرْتُ وقلتُ :

– إنَّها ترِيدُ مُعاكَستِي . إذْ كانتْ تأكلُ علَفَها قبلَ اليَوْمِ ، فَمَا بالُهَا الآن ؟

وَأخِيرًا وَضعتُ كمِيةً من السُّكَّرِ فِي يدِي ، فمَا أن وضعَتْ عليْهِ لِسانَها حتَّى جعلتْ تبتلِعه ابتلاعا و نفضْتُ مَا فِي يدِيَّ علَى العَلفِ ، فجعلَتْ تلتَهِمُه ، ثمّ وضعتُ العَلبةَ وسَطَ العَلفِ مَعَ قليلٍ مِنَ السُّكَّرِ فَالتهمَتْه ، وابْتلَعتِ العُلْبَةَ معَهُ فقلْتُ :

ـ الحمد لله ٠

وآنطلقتُ مُسْرِعًا إلى المسجدِ لأداءِ صلاةِ العيدِ وأنا أكادُ أطِيرُ فَرَحًا وَفورَ الانْتهاءِ مِنَ الصّلاةِ وتبادُلِ التّهانِي عُدْتُ إلى المنْزل مع أبِي .

فهنّأتُ أمّي وَزَوْجَةَ عمّي وَخَالي بِالعِيدِ ، وغيّرْتُ ملابِسِي آستِعْدادًا لِذَبْحِ الأضَاحِي ٠

وآجتمع أبناءُ الجيرانِ وأمهاتُهم قُرْبَ دارِنا حيْثُ ستُذْبحُ الأكباشُ والبقراتُ ، وجاء والدِي وعمّي يحمِلُ كلٌّ منهما شفراتٍ ومشاحذ وسَواطيرَ وحِبالاً ٠ والتحقَ بِهما خالِي سليمانُ الّذي صاحَ من بَعيدٍ :

ـ اذبحُوا كَبْشَ سِي محمودٍ أوّلاً ٠

فأضْجِعَ أرضًا وذُبِحَ ثمّ نُحِرَتْ بقرَةُ خالِي سُليمانَ ، وأخِيرًا ذبحنا بقرتَنا ، وكانتْ عظيمةَ الجثّةِ سَمينةً ثم إنّنا شرعْنا في سلْخِهَا ، وبعد ذلك علقناهَا بعد جُهْدٍ لِنُخْرِجَ كَرْشَها وأمْعاءَهَا وما كادَتْ تسْتقِرُّ في المُعْلَقِ حتّى سَقطتْ على أبي فكَسرَتْ رِجْلَهُ ٠ فأخذَ يَصِيحُ ، وتبدّلتِ الأفراحُ أتراحًا ٠ وذهبَ عمّي مسْرِعًا إلى غُرْفَةِ الهاتِفِ لمخاطبةِ سيّارةِ الإسْعاف ٠ فجاءَتْ وحَملَتْ والدِي إلى المسْتشْفى ٠ أمّا عمّي فعادَ إلى عملِهِ يساعدُه خالِي سُليمانُ ومَنْ بقِيَ من الأطفالِ والنِّساءِ ٠ وكانتْ أمّي تبكِي وتقُول :

أنا السّببُ فِي كَسْرِ رِجْلِهِ

فقالتْ زَوجَةُ عمّي :

– كيفَ كنتِ السَّببَ في تكسيرِ ساقِهِ ، هل أنتِ التِّى أسْقَطتِ البقرةَ عليهـا ؟

– لقد قال سَنذبحُ كبشًا في العيدِ ، فأبَيْتُ وأصْرَرْتُ عَلَى ذبْحِ بقرةٍ ، فكانت مشؤُومةً •

– لا تقولِي ذلك ، فكلُّ شيْءٍ بقضاءٍ وقدر •

وكانتْ تتكلَّمُ وهيَ تشُقُّ كَرْشَ البَقَرَةِ • فعثَرتْ على العُلْبَةِ الصَّغيرةِ فوضعَتْهَا فِي يدِها ثمّ جعلَتْ تتأمّلُها وأخيرًا فتَحتْها فوَجدتْ بها وَرَقَـةً مكتوبةً فقالتْ لِعمِّي:



ـ انظُرْ ، لقد وجدتُ هذه الورَقةَ وسط العُلْبةِ ٠ وقد أخرجتُها من كَرْشِ البَقَرةِ ٠

فأخذها وشرَعَ فِي قِراءَتِها مستَغْرِبًا والحاضِرونَ يُنْصِتُونَ إِليْهِ وكلُّهمْ آذانٌ مُصغيةٌ ، وعقولٌ حائِرةٌ عاجِزةٌ عن تَفْسِيرِ هذا اللُّغزِ المحيِّرِ الغَرِيبِ وبَعْدَ حِوارٍ طويلٍ بين الحاضرين فِي موضوعِ هذه الموعظةِ قالتْ أمِّي:

ـ واللهِ لَنْ أَذْبَحَ بقرةً فِي العِيدِ بعدَ هذِهِ السَّنةِ لقَدْ كانتْ هذِهِ البَقَرةُ أعظَمَ درْسٍ وَلَيْتَنِي عمِلْتُ بِرَأْيِ زَوْجِي ٠



سحب من هذا الكتاب 3,480 نسخة
تتمة للطبعة الاولى و5,300 نسخة
في طبعته الثانية .

مطبعة الكواكب